

وتصبح كلها ألمانية المنحى والمترع. وربما دعت حالة أوروبا وأميركا إلى تأليف الأمم بحسب العناصر فيكون العنصر الجرمانى أو الاتحاد الجرمانى شقاً والعنصر السلافي شقاً آخر وكلاً من العنصر اللاتينى والعنصر الإنكليزي والسكسونى شقاً كما يكون الجنس الأصفر فى الشرق الأقصى برأسه فسبحان مفرق اللغات واللهجات وملون الصور والسحنات .

الخطابة عند العرب

الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية إذا صاحبت فيها الكسبية ألفطرية جاء من الخطيب كل قول عجيب، وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان. كما أن شيشرون أخطب خطيب عند الرومان - خطب فى الجمهور أول مرة ولم يحسن الإلقاء لأنه كان ألغى مثل راصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصوت فحاول إصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة فى فمه وإنشاد آيات وهو يركض على شاطئ البحر ويرتقى الرّواي والأكام

قال الجاحظ: أخبرني محمد بن عباد بن كاسب كاتب زهير مولى بجيلة وكان شاعراً راوية وطلابة علم علامة قال: سمعت أبا داود ابن جرير يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام وأمواله فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر فى عيون الناس غي، ومس اللحية هنك، والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب، وقال: وسمعت يقول:

رأس الخطابة الطبع، وعينها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وهماؤها تخيير اللفظ، واخبة مقرونة بقلة الإستكراه .

وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله، قال أبو عثمان الجاحظ: هذا الكلام شريف نافع، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه، ثم اعلّموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدين الساقط، يعيش في القلوب، ثم يبيض ثم يفرخ فإذا ضرب بجوانه، ومكن بعروقه، استفحل الفساد وبزل، وتمكن الجهل وفرخ، فعند ذلك يقو دأؤه، ويمتنع دواؤه، ولأن اللفظ المهجين لردى، والمستكره الغبي، أغلق باللسان، وأنف المسمع، وأشدّ التحاماً بالقلب، من اللفظ التبيه الشريف، والمعنى الرفيع الكريم، ولو جالست الجهال والنوكى، والسخفاء والحمقى، شهراً فقط لم تنقذ من أضرار كلامهم، وخيال معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرًا، ولأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشدّ التحاماً بالطبع واللسان، بالتعلم والتكلم، وبطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسه كتب الحكمة، يجرّد لفظه، ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير .

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى ما هذه البلاغة التي فيكم قال: سيء تميش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له رجل من عرض القوم يا أمير المؤمنين هؤلاء باليسر والرطب، أبصر منهم بالخطب، فقال صحار: أجل والله لنعلم أن الريح لتتقده، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصبغه، وأن الحرّ لينضجه.

قال أبو عثمان: قال صاحب البلاغة والخطابة، وأهل البيان وحبّ التبيين إنما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلّم المتنادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه، كما تتخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المتشادق، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباه آل الدّر فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب والذّم له ألزم وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدّة أمثالٍ سائرة، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرافق والانتفاع، ومدار العلم على الشّهد والمثل وإنما حثوا على الصّمت لأنّ العامّة إلى معرفة خطأ القول، أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت. ومعنى الصامت في صمته، أخفى من معنى القائل في قوله، وألا فالسكوت عن قول الحقّ، في معنى التّلق بالباطل ولعمري أنّ التّاس إلى الكلام لأسرع، لأنّ في أصل التركيب أنّ الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل، والسكوت عن جميع القول، وليس الصّمت كلّه أفضل من الكلام كلّه، ولا الكلام كلّه أفضل من السكوت كلّه، بل قد علّنا أنّ عامّة الكلام، أفضل من عامّة السكوت، وقد قال الله عزّ وجلّ: (سمّاعون للكذب آكلون للسّحت فجعل سمعه وكذبه سوءاً) وقال الشاعر:

بني عديّ ألاّ ينهى سفيهمكم ... أنّ السّفية إذا لم ينه مأمور

وقال آخر:

فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ... ضحكت له حتى يلج ويستشري

وكيف يكون الصّمت أنفع، والإيثار له أفضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخصّ، والرواة لم يرووا سكوت الصّامتين، كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبيائه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحبودة قليلة، ومواضع الكلام

المحمودة كثيرة، وطول الصمت يفسد البيان. وقال ابو بكر بن عبد الله المرني: طول الصمت حبة كما قال عمر: ترك الحركة عقلة. وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبدلت نفسه، وفسد حسنه، وكانوا يروون صبيانهم الإرجاز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتح النهاة، ويفتح الحرح (الصوت)، واللسان إذا أكثر تحريكه رقّ ولان، وإذا أقللت تقلبيه وأطلت إسكاته جسا وغلظ، وقال عباة الجعفي: لولا الدربة وسوء العادة، لأمرت فتياننا أن يماري بعضهم بعضاً، وأية جارحة منعتها الحركة ولم تمرّها على الأعمال، أصابها من التعقّد على حسب ذلك المنع

نصائح لمن يتطال للخطابة

مرّ بشر بن المعتز بإبراهيم بن جبلة بن مخزّمة السكوني الخطيب وهو يعلم فتياهم الخطابة فوقف بشر فظنّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أوليكون رجلاً من النظارة فقال بشر: اضربوا عمّا قال صفحاً، واطوروا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا وأشرف حسباً، وأحسن في الإسماع، وأحلى في الصدر، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجنب لكل عين، وعزّة من لفظٍ شريفٍ ومعنى بديع، واعلم أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكدة والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعر فإنّ التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراع معنى كريماً فليلتبس له

الدهفظاً كريماً، فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقَّهما أن تصوَّهما عما يفسدهما ويهيجنهما وعما تعود من أجله إلى أن يكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتبس إظهارهما وترهقن نفسك بملايسهما وقضاء حقَّهما، وكن في ثلاث منازل، فإنَّ أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقياً عذياً، وفحماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، أما عن الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وأما عن العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتصنَّع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكلِّ مقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي فإنَّ أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلبك، ولطف مداخلك وإقدارك على نفسك، على أن تفهم العامة معاني الخاصة، تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفء، فأنت البليغ التام كالشعر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء ألفتين. قال أبو عثمان: أما أنا فلم أرَ قوماً قطَّ أمثل طريقةً في البلاغة من الكتاب رعى الفرائل

فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولال ساقطاً سوقياً وإذا سمعتموني أذكر العوام، فإني لست أعني الفلاحين والحشوة، والصنَّاع والباعة، ولست أعني الأكرواد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البرد والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأمثال الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع النصارى أربع: العرب وفارس والهند والروم، والباقون همجٌ وأشباه الهمج وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأديننا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك

الأمم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا، عل أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضاً، ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتز إلى ما ذكر من الأقسام قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك لا تسنح لك عد أول نظرك وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة التي لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها، وفي نصائها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والجزول في غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختبار الكلام المشور، لم يعبك بترك ذلك أحد، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك، بصيراً بما عليك أو ما لك، عابك من أنت أقل عيباً منه ورأى من هو دونك أنه فورك

فإن ابتليت بأن تتكلف القوم وتتعاطى الصنعة، ولم تسح لك الطباع في أول وهنة، وتعصى عليك بعد إجابة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعوده عند نشاطك وفراغ بالك بأنك لا تعدم الإجابة والموافاة إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق فإن قنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال والمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهر الصناعات إليك وأخفها عليك، فإن لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب الشيء لا يحسن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسرح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع الخبة والشهوة

(٨) ما يجب على الخطيب وما لا يجب

قالوا: وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى تقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذا كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ. وإليها أحسن وبها أشغف ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلقاء وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدورة لكل تابع.

قالوا: وفيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السباطين أو على المنبر أو في سدة دار الخلافة أو في يوم جمع وحفل أما في إصلاح بين العشائر واحتماء دماء القبائل واستلال تلك الضعائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشان رفيع المكان: ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لا شأهم فتلاشوا ولو. المتكلم. إلى أن يفظ بالتلاشي لكان ينبغي أن يؤخذ فوق يده، وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته: وأخرجه الله من باب النيسية فأدخله في باب الأيسية.

قال: وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعربياً وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم

في طبقات فمن الكلام الجزل والسَّخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف
والثَّقِيل وكله عربيٌّ وبكلٍّ قد تكلَّسوا وبكلٍّ قد تَمادحوا وتعابوا فإن زعم زاعم أنه لم
يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العي والكَي والحصر
والمفحم والخطل والمسهل والمتشَدَّق والتَّضَيِّق والمهَّاز والثرثار والمكسار والمهَّاز ولم
ذكروا المجرر والمهَّاز والمهَّاز والمهَّاز والمهَّاز (كثير الكلام) وتلهاع
(متشَدَّق) وفلان يتلَّع في خطبته وقالوا فلان يخطيء في جوابه ويحلّ في كلامه ويناقض في
خبره ولو أنّ هذه المور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سَمِيَ ذلك البعض
والبعض الآخر بهذه الأسماء

وأنا أقول أنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألدّ في الإسماع ولا
أشدّ اتِّصَالاً بالعقول السَّليمة ولا أفقّ للنَّسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع
حديث الأعراب ألفصحاء العقلاء العلماء البلغاء.

يروى أن مطرف بن عبد الله كان يقول: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه. ويقول: لا تقبل
بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود: حدّث النَّاس ما
حدّثوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فترةً فأمسك قال: وجعل ابن
السَّكَّاك يوماً يتكلَّم وجارية له حيث تسع كلامه فلما انصرف إليها قال لها كيف سمعت
كلامي قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده فقال: أردده حتّى يفهمه من لم يفهمه
قالت: الحد أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّهُ من فهمه. قال عباد بن عوام عن شعبة
عن قتادة قال: مكتوبٌ في التَّوراة لا يعاد الحديث مرّتين. وسفيان بن عيينة عن الزَّهري
قال: إعادة الحديث أشدّ من نقل الصَّخر. وقال بعض الحكماء: من لم ينشط لحديثك

فأرفع عنه مؤنة الاستماع منك وجملة القول في الترداد نفسه أنه ليس فيه حد يحصره من
العوام والخواص

قال قدامة بن أشروس: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتسهل والجزالة
والخلاوة وإفهاماً يغنيه من الإعادة ولو كان في الأرض ناطقاً يستغني بمنطقه عن الإشارة
لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة وقال مرة: ما رأيت أحداً كان لا
يتجسس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحج ولا يرتقب لفظاً كان قد استدعاه من بعد
ولا يلتبس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر
بن يحيى. وقال قدامة: قلت لجعفر بن يحيى ما البيان: قال أن يكون الاسم يحيط بمعناك
ويجلي عن معنالك وتخرجه من الشركة وتستعين عليه بالفكرة والذي لابد منه أن يكون
سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل.

قال أبو عثمان أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته أن يعترض
الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق قال أبو الحسن قال سفيان بن عيينة: تكلم
صعصعة عند معاوية فغرق فقال معاوية: هرك القول فقال صعصعة: إن الجياد نضاحة
بالماء. والفرس إذا كان سريع العرق وكان هشاً كثير العرق كان ذلك عيباً وكذلك هو في
الكثرة وإذا أبطأ ذلك وكان قليلاً قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يجب أيضاً.

نصائح لطالب الإجادة في خطبه

رأيت بما مضى بعض العيوب التي يجب على الخطيب أن يربأ بنفسه عنها مما ذكره أبو
عثمان الجاحظ وهما الآن قطعة أخرى له قال: قال بعض الربانيين من الأدباء وأهل
المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعقق ويغض الإغراق في القول والكلف

والإجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودواؤه وما يعتري المتكلم من ألفتنه بحسن ما يقول ويعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث الاقتدار من التهكم والتسلط والذي يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعاني والخلابة وحسن المنطق. قال في بعض مواعظه: أندركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم قولاً مقنعاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأريت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت فقد صارت الألفاظ في معنى المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري والقلب ضعيفاً وسلطان الهوى قويٌّ ومدخل خدع الشيطان خفيٌّ فاذا ذكر هذا الباب ولا تنسه وتأمله ولا تفرط فيه فإن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لم يقل للأحنف بعد أن احتبسه حولاً مجرمًا تاماً ليستكثر منه وليبالغ في تصفح حاله والتنفير عن شأنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا من كل منافق عليم وقد خفت أن تكون منهم إلا لما كان راعه من حسن منطقهم ومال إليه لما رأى من رفقة وقلة تكلفه قال الجاحظ: فالقصد من ذلك أن تجتنب السوقية والوحشية ولا تجعل همك في قذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني وفي الإختصار بلاغٌ وفي التوسط مجانية للوعورة وخروجٌ من سبيل من لا يحاسب نفسه وقال أحد العناء وجرى شيءٌ من ذكر الخطب وتميز الكلام: تلخيص المعاني رفقٌ والاستعانة بالغريب عجزٌ والتشادق في غير أهل البادية نقصٌ والنظر في عيون الناس عيٌّ ومس اللحية هلكٌ والخروج مما بني عليه الكلام إسهاب. وكان يقول: رأس

الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الإعراب وبهاؤها تحبير اللفظ والخبّة مقرونة بقنّة الاستكراه وأنشد في خطبة إيراد

يومون باللفظ الخفي وتارة... وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقد ردّ الجاحظ على من زعم أنّ البلاغة أن يكون السّامع يفهم معنى القائل وجعل ألفصاحة والنكتة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كلّ سواءً وكلّه بياناً قال: وكيف يكون ذلك كلّ بياناً ولولا طول مخالطة السّمع للعجم سماعه لمفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه إلاّ للتّقص الذي فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلّون على معاني هؤلاء بآكتالمهم كما لا يعرفون ركافة الرّومي والصقلي وإن كان هذا الاسم إنّما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فتحن قد نفهم بحسنة ألفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بضغاء السّنور كثيراً من إرادته وكذلك الكلب والحصار والصبي الرضيع

قال: وكانوا يمدحون شدّة العارضة وقوّة اللسنة وظهور الحجّة وثبات الجهاد وكثرة الرّيق والعلوّ على الخصم ويهجون بخلاف ذلك. ثمّ قال: وهم وإن كانوا يحبّون البيان والطلاقة والتّحبير والبلاغة والتخلّص والرشاقة فإنهم كانوا يكرهون السّلاطة والهدر والتكلف والإسهاب والإكثار لما في ذلك من التزيّد والمباهاة وآتباع الهوى والمنافسة في العلوّ والقدر وكانوا يكرهون ألفضول في البلاغة لأنّ ذلك يدعو إلى السّلاطة والسّلاطة تدعو إلى البذاء وكلّ مرآء في الأرض فإنّما هو من نتاج ألفضول ومن حصل كلامه وميّزه وحاسب نفسه وخاف الإثم والذّم أشفق من الفرارة وسوء العادة وخاف ثمرة العجب وهجنة القبح وما في حبّ السّعة من ألفتنة وما في الرّياء من مجانبة الإخلاص

قال: وكانوا يأمرّون بالتّين والتّيت وبالتحرّز من زلل الكلام ومن زلل الرّأي ومن الرّأي الدّبري والرّأي الدّبري هو الذي يعرض منه الصّواب بعد مضي الرّأي الأوّل وفوت استدراكه وكانوا يأمرّون بالتحلّم والتعلّم وبالتقدّم في ذلك أشدّ التّقدّم. قال: أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبين إن ظننت أن لك فيهما طبيعةً وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة ويستبدّ بها سوء العادة وإن كنت ذا بيانٍ وأحسست من نفسك بالتفوّد في الخطابة والبلاغة ويقوة المنة يوم أحفل فلا تقصّر في التماس أعلاها سورةً وارفعها في البيان منزلةً ولا يقطعك همّ الجلاء وتخويف الجبناء ولا تصرفك الروايات المعدولة عن وجوهها والأحاديث المتأولة على أقبح مخارجها فإن أردت أن تتكلّف هذه الصّناعة وتنسب إلى هذا الأدب فقرضت قصيدةً أو حبرت خطبةً أو ألقت رسالةً فيأيك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بشرة عقلك إلى أن تتحلّه وتدعيه ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو إشعارٍ أو خطبٍ فإن رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدّج إليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحلّه فإن كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تكلفك فلم تر طالباً ولا مستحسنًا فلعله أن يكون ما دام. قضياً أن محلّ عندهم محلّ المتروك فإن عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الأسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصّناعة واجعل رائدك الذي يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه. فقال: وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ويكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة ويكون له طبيعة في الحداء أو في التعبيرات في القراءة بالألحان وليس له طبيعة في الغناء وإن كانت هذه الأنواع كلّها

ترجع إلى تأليف اللحن ويكون له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السرناي ويكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ويكون له طبع في صناعة اللحن ولا يكون له طبع في غيرها ويكون له طبع في تأليف الرسائل والطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر ومثل هذا كثير جداً .

وقال: ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آتق ولا ألد في الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقريباً للبيان من طول اقناع حديث الأعراب ألفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا إلا أتي أزعم أن سخياف الألفاظ مشاكل لسخياف المعاني وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل ألفخم ومن اللفاظ الشريفة الكريمة من المعاني كما أن التادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من التادرة الحارة جداً وإنما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس النادرة ألفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وإنما الشآن في الحار جداً والبارد جداً وكان محبر بن عباد بن كاسب يقول: والله لفلان أثقل من مغنٍ وسط وأبغض من ظريفٍ وسط. قلنا: وهذا يشبه ما قاله لابروير في كتابه الأخلاق: من الأشياء ما لا يطاق فيه التوسط: الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام. قال إسحاق بن حسن بن فوهة: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد سئل ما البلاغة قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في أمور كثيرة منها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل. فعامّة

ما يكون من هذه الأبواب الروحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطب والإطالة في غير إملال وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته كأن يقول: فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فإنه لا خير في كلام لا يدل على معنك ولا يشير إلى مغزاك وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعنا قال فقل له فإن مل المستمع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف قال: إذا عطيت لكل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تقيم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيء وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا ينال.

علم الماني

رأينا في العهد الأخير حركة مباركة نحو العمران في هذه الديار فقد فتحت في دمشق وبيروت وحلب والقدس وبافا وحمص وحماه وطرابلس وغيرها شوارع وجادات واستجدت الهمة لتغيير صورة المدن القبيحة بصور جميلة من الطرز الجديد في البناء وشعر القوم وولادة امرهم بأن الطرز العتيق في الأبنية ينبو عنه النظر ولا يسد الحاجة المطلوبة في البناء ولا ينم عن ذوق بحيث أصبحت مدنا بعد ضياع فن الهندسة منها عبارة عن قرى حقيرة واكنها واستعصى عن الحجر والآجر بالطين واللبن مما يسع إليه البلا والحريق والشر الأعظم في تراجع العمران في هذه البلدان عدم الاحتفال بفن هندسة البناء أو علم المباني فأصبح كل امرئ وما يختاره من البناء يبني على ذوقه بحيث لا تكاد تجد في أكثر

المدن الداخلية أبنية من القرن الثاني عشر والثالث عشر هجرية إلا كثية ينفر منها الذوق وتتجاف عنها العين ولا تقوم بما تقوم به المباني في البلاد المتمدنة من الاقتصاد في التفقة والراحة للسكان وجمال الدّاخل والخارج ولا ينافي ذلك كون بعض الدّور الجميلة داخل البلاد ولا سيما في دمشق جميلة مزخرفة تتوسطها أحواض الماء الدافق وتعرّش على حوائطها النباتات والزهور وقد جعلت طابقين طابق أسفل للصيف وطابق أعلى للشتاء فإن هذه الدور قليلة العدد لا تكاد تجد في الحي الواحد داراً أو دارين منها أما الحوانيت والمخازن فالجيد منها أقل من القليل.

علم البناء هو علم إنشاء المباني على نسبة معينة وبحسب قواعد مقررة يجب أن يكون كلّ بناء نافعاً من وجوه فإن الحاجات المادية والإلهامات الروحية وطمأنينة المرء قلبي على المهندس مجموع الخطة أو التصميم الذي يطلب منه وتقسيم داخل البناء واتساعه وغناه أوفقره ومن أجل ذلك انقسمت المصانع المعاهد كما قال الإفرنج منذ القدم حتى زماننا إلى ثلاثة تقسيمات كبرى وهي الهندسة الدينية والهندسة المدنية والهندسة الحربية.

كانت مصر وآسيا مهد علم المباني وأجمع الباحثون أن أهرام منفيس أقدم المصانع التي عرفناها وأبنا الهول المنحوت في الصخر في الجيزة القائم تحت رجليه معبد من الصوان والرخام الأبيض لا يتأتى فصله عن الأهرام ولم تعرف المسلات في مصر إلا على عهد الدولة الثانية عشرة من دول الفراعنة وارتقت الهندسة المصرية زيادةً عن ذي قبل على عهد الدولة التاسعة عشرة والدولة العشرين.

ظهرت الهندسة في بابل وبنوى في بناء السدود والأسوار أولاً وحازت حدائق سميراميس ومعبد بعل شهرةً مستفيضةً وبحق ما اشتهرت ولم يقض على بنائها ويدخل البلاد إلى

تضاعفها إلا ما جعل فيها من القرميد. وكان للمعادن شأنٌ عظيمٌ في معاهد الفينيقيين واليهود وكانت الهندسة الهندية تتشغل في معابد الهند ومدافنها وبيوت أصنامها. وعُرفت أثينا بأنها مهد الانقلاب الهندسي في العالم فبلغت فيها الهندسة في عهد بركليس وفيدياس أرقى درجاتها وتمثل الذوق اليوناني في المعابد أكثر من أي شيء وأثر في هندسة الغرب حق التأثير.

وتفنن الرومان في البناء وخلفوا في كل مكانٍ امتدَّ سلطانهم عليه من آثار الهندسة في الطرق والمجاري والأسوار والمسارح والحمامات ما شهد لهم باتساع ألفكر والهندسة العملية والمتانة في العمل. ولما انتشر الدين المسيحي واعتُبر ديناً لإمبراطورية الرومان على عهد قسطنطين أخذ المسيحيون يبنون معابدهم على مثال معابد الوثنيين مع تزيين ظواهر البناء وتضاف إليها أبراجٌ وقبابٌ للأجراس. وتفنن البيزنطيون بالنقوش في البناء ويدخل فيها الرخام والمعادن والفسيفساء وكنيسة آياصوفيا في الأستانة وهي أجمل مثالٍ من هندسة الكنائس في القرن السادس.

قال العارفون من الفرنجة: لم يخترع العرب أبنية خاصة بهم بل تجلّى في هندستهم حبهم للزخرف واللفظ واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين وكان تفننهم في هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار مما جعل لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبنى على الدهر جديدها ودلت كل الدلالة على إغلامهم بالنقوش والزينة كأن أبنيتهم ومصانعهم هي قماشٌ من أقمشة الشرق تفنن حائكها في رقصها ونقشها.

جاء القرن الثاني عشر في أوروبا وهندسة البناء تنتقل من طورٍ إلى طورٍ حتى إذا كان القرن الخامس عشر كانت إيطاليا بفضل نهضتها صاحبة المقام الأول في الهندسة وعن

هندسة معاهدها ودورها نقل لفرنسيس والإسبان والإنكليز والألمان والسويسريون. ومن أمم أوروبا من أضياعت أصولها القديمة في البناء واتخذت من أصول الطليان نموذجاً حسناً سارت عليه كما لا تزال الأمم تتخذ من طرز الهندسة العربية الأندلسية نموذجاً إلى هذا العهد ومنها محطة السكة الحجازية الحديثة في دمشق وهي أبداع بناية حديثة في هذه الحاضرة ولو سار الناس على نموذج معين في البناء لكانت مصانعنا ودورتنا جميلة كمصانع الإفرنج وبيوهم ولم يوفق في ذلك بعض الشيء إلا أصحاب البيوت الخدثة في بيروت ولبنان والقاهرة والإسكندرية والأستانة وسلايك وغيرها من الساحل. ولو تطلعنا إلى الصين لرأيناها منحة في هندستها ومثلها اليابان تأثرت في هندستها القديمة بجوارها الصين ولكن بناياتها الحديثة حسنة كاهندسة الأوروبية

قال مهندس مصري: إن ما تفهمه العامة في المدن الصغرى من أنه لا فرق بين المهندس المعماري والبناء وكثير من البنايين الذين عندهم بعض الذكاء والمعرفة يقومون بكثير من الأعمال ليس على حقيقته. فالمباني ليست بهذه السهولة التي اختبروها. نعم إن كل إنسان قادر على أن يفصل منزله الذي يرغب في سكناه ويتخيله ولكنه لا يدري كيف يجعل شكل واجهته جميلاً فمنهم من يفتكر أن حسن المباني بكثرة الزخرف فيسئرها به فتظهر كشكولاً قبيحاً من الأشكال المتنافرة تدل على خفة واضعها. ومنهم من لا يفكر في ذلك مطلقاً إلا بعد تمام بنائه فلا يدري كيف يفعل إذ يظهر له كثير من العيوب وللمطلع أن يردد طرفه في شوارع القاهرة فيرى ما يدهشه من مثل هذه المباني فإذا زار القاهرة أحد المهندسين الغرباء لأول مرة فإنه يدهش كثيراً إذ كان يتخيل قبل رؤيتها مدينة شرقية جميلة من الطراز العربي التركي والفرعوني فإذا به يرى خليطاً مدهشاً من المباني لا يدري

كيف يعبر عنه فإذا دقق النظر في كل بناء على حدته وجد اختلافاً عظيماً بينها فبعضها مصنوع على أتم ما يكون وهو القليل وبعضها مضحك بل منفر لا يقدر محب الفنون الجميلة أن يطيل النظر إليه إلى غير ذلك من مختلف الأشكال والألوان فإذا فحصها لا يرى في ترتيبها ونظامها مشابهة مطلقاً فيعرف بذلك أن لا قومية لهذه البلاد ولا ارتباط في أذواق أهلها ، وقد يلاحظ أيضاً في بعض العمارات أن أصحابها ليست فيهم القدرة على بنائها فلذلك حذفوا كثيراً مما كان متمسكاً لها ابتغاء الإقتصاد ولا يهمهم إلا أن تكون لهم عمارات كبيرة من غير أن يلتفتوا إلى جودة أدائها ودقة صنعها ومنهم من يريد أن يجعل مبانيه في غاية المتانة والإتقان فيكثر في الإنفاق عليها دون فائدة وفي كلتا الحالتين تظهر مبانهم في غاية القبح يظهر أن كثيراً منهم ينقصهم المنطق والانتقاد بل ويزيد فيهم الإهمال والتهون والجهل فإن بعضهم يأخذ عمله عن رسوم إفرنجية ويريد أن يعمل على شكلها ويحب انيفسلف فيها فيحذف المهم ويضيف ما يرى انه حسن فيظهر عمله مشوة وهو يظن أنه جاء بما لم يأت به الأولون

علم لامباني فن من الفنون الجميلة بل هو أحسنها فإذا قارنا بينه وبين الموسيقى نجد أن كليهما مطرب للإنسان فالأول مكوّن من نغمات غير متنافرة منتظمة الأوقات والثاني مكوّن من تراكيب وأوضاع غير متنافرة الأجزاء

يظهر الأول مذبيات العدد والأوتار يحملها الهواء إلى الأذان فيطرب به الإنسان ويظهر الثاني الظل والضوء والنوان فتراها العين في أتم ما يكون موضوعاً بنسب محفوظة ما بين مزخرف وبسيط تظهر عليها المتانة والراحة فتشتاق إليها النفس فكلا الفئتين جميل غير أن الأول تذهب محاسنه في الهواء وبعد ذهابها لا يشعر بها وتبقى محاسن الثاني ما دام لها ظل

لا يحتاج الموسيقار في تركيب دور الموسيقى إلا لمعرفة النغمات والأزمان وانطباقها على معنى ما يلحظه من فرح وطرب ولوعة وحزن ولكن في عمل البناء صعوبات جمة من بين فحص الأدوات المختلفة ووضعها وعمل حساب أثقائها ومقاومتها وجمعها وعلى ذلك فإن فن البناء هو أصعب الفنون الجميلة وأحسنها وهو في الحقيقة أول شيء يبحث عنه في كل فن وهو جواب لهذا السؤال الخطير أوجد لي محلاً جميلاً يليق بفني أو عملي وأنت ترى تقدّم فيجب والحالة هذه أن لا يعهد في الأعمال إلا إلى المهندسين الفنيين الأكفاء لا إلى المعلمين والصناع كما هو شأن معظم من يبنى في هذا القرن الرابع عشر في بلاد الشام وبالأسف .

ومما يجب أن يلاحظ في هذه المباني حين عملها جودة أدواتها وتحكيم ترتيباتها ودقة زخرفها ومجانسة وكمال تركيبها العمومي وطرازها وملائمتها لما يحيط بها ووجود كل ما يحتاج له في محتوياتها وتخطيطها وتناسب كل ذلك بعضه مع بعض .

وليس في كل ذلك من بأسٍ على المهندسين فإنهم معذورون بل المسؤول في ذلك هم أصحاب هذه المباني فإنهم يضنون بالقليل أجرة أتعاب المهندس الذي يضع لهم تصميماً تاماً عن مبانهم ويفكرون أن ذلك شيء لا ضرورة له ومن ذلك ظهرت هذه النتيجة المغيبة في الأبنية

إن الذين يحكمون على الأمة ليس لهم إلا الظاهر منها وأن أول شيء يظهر لهم هو حالتها الاجتماعية وكيفية معيشتها ومبلغ مدنيّتها وذلك لا يظهر إلا في مبانها فإذا كانت مستكملة الشروط حكموا لها بالقي وإلا فيحكمون عليها بالجهل والالخطا وربما يعترض بعض المظنّين بقولهم إنا عهدنا لبعض المهندسين بأعمالنا فقدّموا لنا رسوماً لمبانينا

ولكننا بعد أن أقمنا بناءها وجدنا شكلها ليس كما يرام فيجاب على ذلك بجوابين: الأول أنهم ضنّوا على مهندسيهم بجميع قيمة أتعابهم. الثاني: إنّ الرسوم المقدّمة إليهم كانت بنسبة تلك الأتعاب ونتيجة ذلك أنّ الرسم المقدّم إليهم كان الشكل التخطيطي فقط وليس ذلك بالكفاية خصوصاً وأنهم لم يفهموه في الغالب وهم في ذلك معذورون والمهندسون لا يمكنهم تقديم رسوم مستكملة الشّروط بهذه الأتعاب القليلة

والنتيجة أنه يجب عمل الرسوم اللازمة لأي بناء قبل الشروع فيه ويجب أن تكون الرسوم المقدّمة من المهندس أربعة على الأقل أو لها المسقط الأفقي ثانيها شكل أهم واجهة في البناء ثالثها قطاع رأسي عن جميع البناء مبين فيه الإرتفاعات وغير ذلك رابعها رسم تفصيلي عن أهم ما يراه المهندس في البناء

وبعد فإن المانع في فلسفة ألفنون الجميلة من أن نقول هذا البناء بلغ حدّ الكمال لم يزل إلى الآن ولا ندري إن كنا بلغنا درجة محسوسة في الرقي تظهر آثارها لمن يأتي بعدنا أو لا فإننا لم ننسى الزمن الماضي ومبانيه وقد بقي منه كثير من القصور الكبير إلى الآن فإذا نظرنا واجهة إحداها التي كانت في زماننا آية الآيات في الزخرف والرواء عند صانعيها نقابلها الآن بابتسامة فهل ما نصنه اليوم ونظنته جميلاً سيقابل من رجال المستقبل بهذه الابتسامة أيضاً؟ لا ندري: ولكن الذي يجب علينا هو أن نصنع أعمالنا على قواعد أساسية يقررها العلم ويستحسنها العقل وترتاح لها النفس حتى إذا جاء الذي بعدنا ونظر عملنا يعتقد أننا كنا نشتغل بفكرٍ وعلى قواعد ويكون ملزماً باحترام أعمالنا كما نحترم نحن الآن الآثار الجميلة التي تركها الفراعنة والعرب التي هي موضع الإعجاب لعهدنا عندنا وعند غيرنا إنّ الحكم على شيء أو المقارنة بينه وبين شيء آخر هو فرعٌ عن

تصوره وذلك لا يكون إلا نتيجة مبلغ رقيّ المقارن في الهيئة الاجتماعية ومبلغ علمه فيما سيحكم فيه فما علينا إلا أن نجتهد ونرقى ونعرف وبعد ذلك نحكم فيكون حكمنا على أساس متين يقبله العقلاء وتطأطي له الرؤوس .

المثل مأوى الإنسان مع أهله بل هو المملكة الصغيرة التي تدبرها مدبرته وهو ذلك الحرم الشرقيّ الذي تعيش فيه المرأة الشرقية مع أولادها بل المدرسة الأولى لأفراد الأمة المستقبلية وهو المكان الذي يأوي إليه ربّه بعد تعب من أشغاله فيجد فيه الراحة والهناء . فيجب والحالة هذه أن يكون محتوياً على جميع أسباب الراحة مستوفياً جميع الشروط الصحيّة سواء كان ذلك في البيوت داخل المدن أو في المنازل الخلويّة أو في طباق العمارات الكبيرة

إن رقيّ الأمة أو وجوب رقيّها يضطرّها إلى تغيير النظام الذي سارت عليه في القرن الماضي لإيجاد ائحال الكافية من كلّ وجهة لمعيشة عائلية شرقيّة إسلاميّة أخذت ترجع إلى المعيشة الديمقراطيّة ثم سهولة الأعمال العظيمة بواسطة العدد والاختراعات الحديثة تساعدنا على إنشاء هذه ائحال بأشكال جميلة ونظام تامّ حتى يجد الأفراد فيها راحتهم وسرورهم . يلاحظ المهندي المعماري قبل وضع تصميمه شيئين: الأول ملاحظة عموميّة والثانية تفصيلية وكلتا الملاحظتين تنقسم إلى عدّة أقسام فالأولى يجب على المهندس أن يضع نصب عينيه - نقطة البناء وشكلها - منظر واجهته وتلافيها بالنظر - استقلال محلاته - الاقتصاد الممكن في البناء وكذلك مراعاته للسكان - ما يقي السكان عند حدوث الخطر - ملاحظة المفروشات ونظامها - وحفظ الصّحة ومراعاتها . الثانية تفصيل ائحال من غرفة استقبال الرجال أو المطالعة وغرفة النوم والملابس والحمام وما يتبعه

وغرفة أشغال ربة المنزل وأخرى لاستقبال السيّدات وغرفة الأطفال والمطبخ والأنبار وغرفة الأكل. الخ ولا يوجد قانون لجمع هاتين الملحوظتين وفروعهما وإنما يأتي ذلك بقوة ومهارة المهندس الذي يضع التصميم ومبلغ ذكائه وخبرته وعليه أن ينظر لكل نقطة من هاتين الملحوظتين وغيرها ويهيئ لها جميع الأفكار التي تناسبها في خاطره ثم ينتقي أحسنها وعليها يبرز تصميمه وبعد فلا تدخل المدن الشامية في طور العمران الحقيقي إلا إذا جعل مصوراً عامّاً لكل مدينة لا يسمح لأحد أن يبني إلا بحسب ما تقرر. وإن يشتغل الممول زمناً في هدم الحلال والأحياء والأزقة الضيقة والدور الكثيرة مع ملاحظة السكّان وحالة البلاد واتباع سنة التدريج وأن لا يبني الباني داره ولا حانوته ولا مصنعه إلا بحسب الطراز الذي ترسمه البلديات والأبعاد التي تعيّن لها للجاذات.

ومن الغريب أن جميع مدن سورية ليس لها خريطة سوى مدينة حلب وما عداها فينبى البانون فيها بحسب رغائبهم يختارون الطراز الذي يروقهم ويلتزم مع مصلحتهم المؤقتة ويعبدون عن الشارع أو لا ينحرفون عنه بحسب ذمهم وقلّ أن شاهدنا بلداً من بلادنا أحسنّ بسلطة مهندسي مجالس البلدية عليه وكثيراً ما يعينه المهندس على ضلالته لقاء عرضٍ قليلٍ يبتاع به ذمته. فإذا وفق رجال الإدارة إلى تصميم ما بدأوا به من هذا القبيل لا يمضي نصف قرنٍ على الأكثر حتى تصبح مدن الشام بل قسباً الصغرى عامرةً مستوفاةً شروط اللّوق والراحة وافيةً بالمراد من حيث الصّحة والغناء.

ونشير على كلّ من تحدّثه نفسه بإقامة دارٍ أو حانوتٍ أو مصنعٍ أو قهوةٍ أو مسرحٍ أو قرنٍ أو معبّلٍ أن لا يشرع بعمله قبل أن يفرع إلى مهندسٍ ماهرٍ ولا يتطلّب من أرباب هذا الفنّ الذي يرتضي بالقليل بل يؤثر الذي يتناول أجره جيّدةً ويعمل ويعمل عملاً

بماثله وبذلك يتوفّر عليه ماله وتبقى بنيته القرون قائمةً تتوارثها أعقابها من بعده وكلما طال عليها العهد حلت وأصبحت لها قيمةٌ وأصبحت لها قيمةٌ فيكون كمن استرخص طبيباً وطبّ الأرواح كطبّ الأشباح متلازمان ولولاهما لما عاش إنسانٌ ولا حيوانٌ ولحرب العمران وابتذر السكان. إن بيوت مهاجرة الإسرائيليين في يافا وجالية الألمانين في حيفا أعظم معلّم لمهندسينا وأهل الأملاك فينا ينظرون كيف أنشأ بانوها من الفقر غنىً ومن العدم راحةً وجمالاً وزخرفاً ورفاهيةً.

أعلام المدن والبلدان

لا خفاء أن كثيراً من الدواعي القديمة والحديثة والآتية تتخذ أسباباً لأسماء البلدان والمدن والأماكن على اختلافها واختلاف اللغات والقبائل والزمان والمكان ونحو ذلك من المؤثرات التي تعمل في الإعلام عمل المؤثرات الطبيعية من حرارة وبرودة ونحوهما في سيارنا الأرضي فتقلب الجبال سهولاً والسهول تلالاً واليابسة بحاراً والبحار يابسةً حتى إنك إذا درست طبقات الأرض وأنعمت فيها النظر توصلت بالبحث إلى استطلاع تلك الفواعل وتعاقبها وما سببته البراكين والزلازل والمؤثرات الأخرى مهبطاً كانت. فتقف حائرًا عندها مسبحاً الخالق الذي أعطاك عقلاً مدققاً وأرشدك إلى معرفة العلل والأسباب لتقتنع وتلتذ بما تكتشفه من مبهمات الشؤون وغرائب الحوادث.

ومن الثابت أن تأثير العبادات وتيار الأديان وتعاقب ألفاظهم وتداخل اللغات أو تزاوجها هي من أهم هذه الفواعل في أعلام الأماكن فخرى الأمة التي تقف على علم مكانٍ كان قد وضعه من قبلها أما تحوله إلى لغتها أو لغة جيرانها أو تتصلح له سبباً بغويّاً آخر لتسيّره ومعرفة معناه أو داعي تسميته. ثم تأتي أمةٌ أخرى بعدها تطرّس على آثارها فتتقصّ رأيها